تاريخ الاجتماع الطبيعي

لجناب الدكتور شلي شميل

تابع لما قبله

إذ قد فرغنا من بيان المشابهة بين جسم الحيّ وجسم الاجتماع وجب علينا في ما يأتي ان ننظر الى ما يترتّب على ذلك من النتائج الكبرى المتعلقة بالكون والسياسة واولاً بالكون

قال احد الحكماء اذا كان الانسان الكامل دليلاً على الجنين فبالاولى ان يكون الاجتماع دليلاً على سائر الموجودات التي تؤلف الطبيعة وعلى السنن الناظمة فيها حتى طبيعتها ايضاً لان الاجتماع اولى باسم العالم الاصغر من الانسان نفسه[1]

قد رأينا في ما مرّ ان كل اجتماع انما هو تعاون يبتدئ طبيعيًّا بمحبّة الذات والشوق وينتهي عنليًّا باتفاق الارادات او التراضي في البشر. لكن ما هي محبّة الذات او ما هو الشوق نفسه سوى اول افعال الارادة فهذه بعد ان تريد ذاتها وحدها تريد سواها من الارادات الاخر لها ثم تريده لنفسه ايضاً لان كل شيء كما قلنا يدور في الاصل حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه اليه وفي الفرع حول مركز نفسه بالشوق الحاصل فيه الى مركز سواه. فالارادة على اختلاف انواعها جاذبة ام عاملة ذاتيّة لم مشتركة هي امرٌ كل اجتماع وجوهر كل حيّ وبهذا الاعتبار يقسم العالم الى ثلاث رُتَب اوّلاً الرتبة التي تكون الارادات فيها عمياء ذاتية كل واحدة منها تشتغل لنفسها كأن لا يوجد سواها وهي الجماد. ثانيًا الرتبة التي تبتدئ الارادات فيها ان يحس بعضها ببعض ويجتمع بعضها ببعض لكن على سبيل الذوق البسيط فقط وهي النبات الحيوان. ثالثًا الرتبة التي تصير الارادات فيها عاقلة تدرك نفسها وتعرف بعضها بعضاً وتجتمع بعضها ببعض على سبيل الاتفاق والتراضي وهي الاجتماع البشري. فالاجتماع البشري هو الجنين بان يسمّى حيوانًا مريدًا متراضيًا وهنا مكان الوفاق بين مذهب الطبيعيين في الحيوان الاجتماعي ومذهب العقليين في العمران. فالواحد انما يبيّن اصل الاجتماع والثاني غايته والصحيح ان الواحد لا ينبغي ان ينفصل عن الآخر. فتاريخ الاجتماع كلّه قائم بالشوق البسيط اوّلاً والتراضي اخيرًا باستحالة الواحد الى الآخر. ولا ريب ان ذلك تاريخ العالم اجمع. فالافعال في الطبيعيات عمياء والسنن ثابتة وهي بالحصر كذلك في العقليات وانما اكتسبت في هذه من القابليّات ما جعل فعل الارادات التي

(١) اشارة الى قولهم العالم الاصغر دليل على الاكبر

صارت عاقلة اظهر فيها فارتباط اعضاء الاجتماع بعضها ببعض اختيارًا كارتباط اعضاء الحيوان بعضها ببعض اضطرارًا

ومرجع ابسط صفات الحي الى الحس والحركة وهاتان الخاصّتان هما بالحصر الحياة . والظاهران الحس والحركة هما ايضًا صورتان لشيء واحد احداهما باطنة والاخرى ظاهرة فهما اشبه شيء بالمقعّر والمحدّب . فالحس هو الكيفية التي تتصل الحركة بها الى مشاعرنا الباطنة والحركة الكيفية التي يتصل الحس بها الى المشاعر الظاهرة . حرّك ذراعك واغمض عينيك فانك تدرك الحس لا الحركة بخلاف الناظر اليك فانهُ يدرك الحركة لا الحس . فالحسّ اذًا هو ادراكنا الحركة الحاصلة فينا والحركة هي ادراكنا الحس الحاصل في سوانا . والاصل الذي يرجع اليهِ الحس والحركة هو القوّة او بالحري الارادة التي هي اس كل وجود . وكل ما يعلّة يحملنا على الاعتقاد بان الحس موجود في العالم حيث توجد الحركة على صور تتفاوت في الوضوح والخفاء . ولا يخفى ان الفاصل بين الحيوان والنبات يعتبر اليوم صناعيًا لا حقيقيًا . والظاهر انهُ كذلك ايضًا بين النبات والجماد[1] نعم انهُ لم يستطع احد ان يولد كريّة حيّة من كريّة غير حيّة لكن هل يستطيع احد ان يولد دقيقة من الكربت من غير الكبريت او دقيقة من الاكسيجين من غير الاكسيجين او من مادة لا اكسيجين فيها . ام هل يلزم من ذلك الاعتقاد ببساطة الاجسام المتكثرة المسمّاة عناصر ومن ثم القول بخلق خاص لكلٍّ من الكبريت والاكسيجين والكربون والحديد والذهب الخ وهل يلزم كذلك القول بقوّة خاصّة لكل دقيقة معدودة في الكيمياء بسيطة شبيهة بالقوة الحيويّة . فالعلم يميل الى ضد ذلك اي الى التسليم بان الجواهر الفردة الكيماويّة ليست غير قابلة الانقسام قطعًا وانما لا تقبله مع بقاء خصائصها فيها على حالها كما ان الجسم الحي لا يقبله مع بقاء خصائصهِ فيهِ . كذلك كالانسان فانك لو شطرتهُ شطرين ما بقي انسانًا فهو من هذا القبيل جوهر فرد واما من قبيل آخر فهو اجتماع

فهذه الاعتبارات تدلنا على ان الحياة موجودة في الطبيعة حيث توجد الارادة على درجات متفاوتة تارة هاجعة خفيّة كما في الجماد واخرى منبهة ظاهرة كما في النبات وطورًا متمالكة متعارفة كما في الحيوان واخيرًا متكاثرة متقوية باشتراك الارادات العاقلة كما في الاجتماعات والممالك

(١) قال توات في مقالة نشرها المتطف من عهدٍ قريب ان الحد القائم بين النبات والحيوان لا وجود لهُ وكنا تمعنا في درس الجمادات نرى اوجه الفرق بينها وبين الاحياء نقلٌ فالانسان يولد من ابوين والحيوان السافل من نظيرهِ بالانقسام والنبات من نبات نظيرهِ والظاهر ان ذلك كذلك في الجماد فقد بيّن جرتنر بالامثال ان الجماد كالحي يتولد من جمادٍ نظيرهِ

فالحياة كالازوت تتحول من حال الى حال مرتقية من ادنى الى اعلى الى ان تبلغ ارفع مقاماتها المعروفة . ألا ترى ان الفعل المسمّى طبيعيًا كالحرارة والكهربائية لا يغير الا اعم خصائص الاجسام فاذا زاد عن حدٍّ معلوم تحوّل الى الفعل المسمّى كيماويًا الذي يغير تركيبها وهو هو في الحالين ولم يتغير الا في الكمية . ولو كان في امكاننا ان نفعل على ما هو ادق تركيبًا ونسلّط على الاجسام حالة خصوصيّة من الحرارة او الكهربائية او الحركة لاستطعنا ان ننبه الحس ونوقظ الحياة او الارادة من نومها العميق . فقد مرّ على الكون زمن كان فيه النظام الشمسي مشتعلاً ولم تكن العوالم سوى دخان ومع ذلك فلا يبعد ان شرارة الحياة كانت موجودة في هذا الاتون الملتهب لانهُ ما لبث ان برد حتى ظهرت الحياة فيهِ . فالذي لا يعتقد المعجزات اي الذي لا يعتقد الا العلم لا تترك الحياة عندهُ عما يسمّيهِ المادّة التي هي نفسها ليست سوى مجموع قوًى او ارادات . فكل شيء في العالم حيٌّ وكل شيء فيهِ فرد واجتماع معًا . فعلم الحياة وعلم الاجتماع وعلم التكوين هي بالحقيقة علم واحد . والعالم نفسهُ ملكة عظيمة في حال التصوُّر وربَّما يظهر فيهِ يومًا ما على صورة الفكر والارادة العاقلة كما ظهر فيهِ في الاصل على صورة حرارة او حركة او قوّة والله تعالى اعلم

الرجال بالعزائم لا بالعمائم

لجناب نسيب افندي عبد الله شلي (١)

قال الحكيم "مع الشيب حكمة" وهو قول يتبلهُ العقل ويؤيدهُ النقل لان مدارك الانسان تقوى وتتسع بالاختبار والمزاولة . فترى الشيوخ الذين عركهم الدهر وحنكتهم التجارب متصفين باصالة الراي وسداد النظر فيستشارون في المهمات ويستنصحون في الشدائد ويعهد الملوك الى نارهم كلما اشتدّت عليهم الخطوب وهذا امرٌ مشهور لا ينازع فيهِ . ولكننا بنسبتنا الحكمة والرزانة الى الشيوخ لا ننفيها عن الشبان ولا نسلم انهم دون الشيوخ في القيام بالاعمال . بل ان ما فيهم من علو الهمّة وشدة العزم واحتدام القوة يجعلهم اقدر من الشيوخ على تولي الاعمال الكبيرة والقيام بالمهام العظيمة . وعندي على ذلك شواهد كثيرة تقوم مقام البرهان فاسرد بعضها واكتفي بالاشارة الى البعض الآخر

من ذلك ان الاسكندر المكدوني الملقب عند العرب بذي القرنين تبوَّأ تخت الملك وهو في

(١) من خطبة له تلاها في جمعية اتحاد الشبان في بيروت